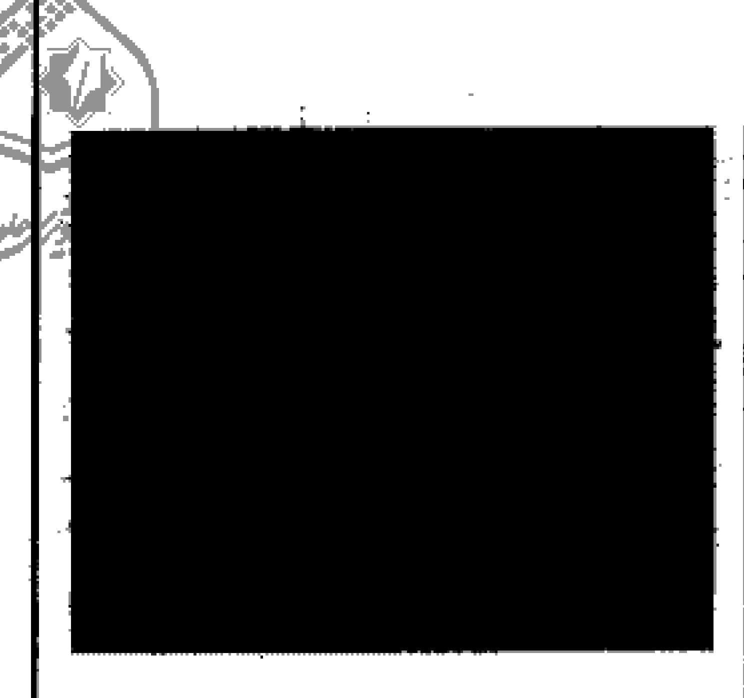
المخطوطات

الفارق بين المصنف والسارق للسيوطي

قاسم السامرائي



● دكتوراه من جامعة كمبردج بانجلترا. عمل أستاذاً مساعداً في جامعة بغداد، وفي جامعة قار يونس في بنغازي بليبيا، ومحاضراً في الدراسات الشرقية بجامعة كمبردج في انجلترا، وجامعة ليدن في هولندا. عضو جمعية الاستشراق الهولندي، ورئيس الجمعية الاسلامية في ليدن وهو متفرغ للبحث حالياً ويعمل في تحقيق الوثائق الاسلامية. له مجموعة من المؤلفات والدراسات.

تصـــــدير:

جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (المتوفى سنة ٩١١هـ) المصنف الموسوعي في غنى عن التعريف به. فقد اغنانا عن التعريف به كثير من المحققين الذين نشروا له كتابا أو رسائل، بل لقد اغنانا السيوطي نفسه واثنان من تلامذته عن التعريف به. فقد أفرد السيوطي كتابه: «التحدث بنعمة الله»[1] للحديث عن حياته وعن شيوخه الذين أخذ عنهم أو تفقه عليهم فذكرهم وترجم لهم وذكر أسانيده العوالي وإجازاته. وأورد فيا أورد ثبتا بمصنفاته التي ذكرها أيضا في كتابه: حسن المحاضرة[2] والتي أفردها أحد ابن خليل اللبودي (المتوفي سنة ٨٨٥هـ) بمصنف صغير وصلنا بخطه[3]. أما تلامذته: عبد القادر الشاذلي فقد كتب: «بهجة العابدين بترجمة جلال الدين» الذي لم يزل مخطوطا[4] ومحمد بن علي بن أحمد الداودي المالكي الذي كتب: «ترجمة السيوطي» الذي لم يزل هذا أيضا مخطوطا[5] لم ينشر بعد. وقد ذكر تلامذته فيا ذكرا ثبتا طويلا بمصنفات أستاذهم وشيخهم السيوطي وترجمة لشيخهم اقتبسا أكثرها من كتاب شيخهم الذي كتبه عن نفسه وهو كتاب: «التحدث بنعمة الله» الذي حققته السيدة اليزابث سارتين - السكّوت ونشرته في القاهرة سنة ١٩٧٢ وأتبعته بدراستها النفيسة لحياة السيوطي ونشاطاته العلمية ومقارعاته مع علماء عصره، ونشرت هذه الدراسة باللغة الإنكليزية في مطبعة جامعة كمبردج بانكلترا في سنة ١٩٧٥. وقد كان أصل التحقيق والدراسة أطروحة (رسالة جامعية) تقدمت بها السيدة سارتين - السكوت إلى جامعة كمبردج للحصول على درجة «الدكتوراه»[6] في سنة ١٩٦٨.

وذكر كارل بركلمان قائمة طويلة بمصنفات السيوطي التي وصلتنا وأشار إلى مواضع وجودها في شتى مكتبات العالم مما عثر عليه في الفهارس التي كانت متاحة الوجود إذ ذاك(٧). بيد أن كثيرا من عنوانات المصنفات جاءت مكررة عنده بتحوير يسير وذلك نتيجة اعتماده على الفهارس التي تسرب إليها الخطأ في سرد اسماء مصنفات السيوطي. وذكر حاجي خليفة عددا منها في مواضع متفرقة من كتابه: كشف الظنون، ذكرتها السيدة سارتين ـ السكوت في مقارنتها مصنفات السيوطي الواردة في كتاب «التحدث بنعمة الله» مع ما ذكره بركلمان وحاجي خليفة والشاذلي والداودي(٨).

هـذه الرسالة :

أدرجت هذه الرسالة في قائمة مخطوطات مكتبة جامعة لايدن باسم: «الفارق بين المصنف والسارق: مقامة ٢٦» وتحت رقم: (Cod. Or. 2734)، وقال فورهوفه مصنف هذه القائمة: إنها «من القرن العاشر للهجرة» ثم أشار إلى كتاب بركلمان (11,158) الذي ذكر «المقامات» وأدرج رقم المكتبة لهذه الرسالة. أما في ملحق الجزء الثاني (ص ١٩٧ : ٣٠٢) فإنه ذكر هذه الرسالة باسم: «البارق في قطع يمين السارق» وأشار إلى فهرس كارلو لاندبرخ القديم (١٨٨٣م) الذي صنفه لمخطوطات أمين المدني التي اشترتها مؤسسة برل ومن ثم بيعت إلى مكتبة جامعة لايدن؛ فالرسالة لذلك من أصل حجازي. فلعل أصلها الذي بخط الداودي المالكي ما يزال في مكان ما من الحجاز.

إن الخطأ الذي وقع فيه لاندبرخ يمكن تعليله، وذلك لان الرسالة تحمل هذا العنوان «المقامة المسماة بالبارق في قطع يمين السارق، كذا في الاصل»، إضافة إلى ما كتبه الناسخ: «وله الفارق بين المصنف والسارق». ولو قرأ لاندبرخ الورقة الاخيرة من الرسالة لاستدرك خطأ التسمية ـ كما سنذكره. أما قول مصنف قائمة مخطوطات لايدن بأن هذه الرسالة هي «المقامة ٢٦» فلم يخبرنا عن مصدر هذه المعلومات. أما عزو الرسالة إلى القرن العاشر فان نوعية الورق والخط لا يسمحان لنا بذلك وهي إلى القرن الثاني عشر أقرب وأقبل من وجهة علم الاكتناه ومن ثم فان تاريخ ١١٢٦[هـ] يظهر في الزاوية اليمنى من أعلى الورقة الأولى مع اسم: «أحمد الحمالي» أو «الجمالي» الذى امتلك الرسالة في هذا التاريخ. ومع أن هذا التاريخ قد لا يدل على سنة نسخ الرسالة فان نوعية الكاغد «الافرنجي» ذي الخطوط المائية العمودية أو الأفقية تثبت أن الورق لا يمكن أن يرقى تاريخه إلى ما قبل القرن الثاني عشر للهجرة، إضافة إلى خصائص الخط ونوعية الحبر الذى استعمله الناسخ.

تقع الرسالة في عشر ورقات [٢١/١٤،٥ سم، وفي كل ورقة ٢٣ سطرا] و ينتهي النص في الورقة ١٠أ. خط الرسالة سقيم جم الرداءة، وتشيع فيه التصحيفات فضلا عن الأخطاء النحوية والاملائية مما يثبت أن الداودي المالكي تلميذ السيوطي المتوفى سنة ٩٤٥هـ الذي قيل فيه: «إنه كان أبرز تلامذة السيوطي وقد تصدر لاقراء الحديث بعد وفاة أستاذه»، لم يكن ناسخ هذه الرسالة كما جاء في آخرها.

لقد حاولت أن أقوم النص ما وسعني الجهد إلا في ثلاثة مواضع لم اهتد إلى تصويبها وهي:

(١) في ورقة ٨ ب: «ألم يسمع هذا الجاهل بالاثر الشائع عن [...]، وهي كلمة واحدة تقرأ: بسرة، يسرة، بشرة، والظاهر أنه اسم أحد الرواة.

(٢) في ورقة ٩أ: «فعمدوا إلى [...] آل عمران...» وهي أيضا كلمة واحدة يمكن أن تقرأ: فن، من، فمن، ممن.

(٣) في ورقة ٨ ب أيضا انقطاع في سياق الكلام، لم استطع إضافته.

ومع شيوع التصحيفات وكثرة التحريفات فانني أعرضت عن ذكرها في جدول ملحق واكتفيت ثمة من كل ذلك بذكر بعض الاعلام والمصنفات الواردة في النص وعرفت بهم وبها بايجاز. كما انني لم أشر إلى مواضع الآيات القرآنية في القرآن الكريم أو الاحاديث النبوية لسهولة تتبعها في المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم والمعجم المفهرس للاحاديث النبوية المعروفين.

إضافة إلى نص رسالة «الفارق بين المصنف والسارق» فان ناسخ الرسالة الحق بها نصا آخر أدرجه في ما يأتي لفائدته في اثبات أن اسم رسالتنا هو «الفارق» وليس «البارق» ولتضمنه رأي ابن حجر:

للسيوطي كتاب أيضا يسمى بالبارق في قطع [يمين] السارق، أوله: الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى. السارقون في العلم ثلاثة أقسام: الأول سراق الحديث وهم مجروحون بذلك باجماع أهل الحديث، وطبقتهم تلي طبقة الوضاعين. وقد أدى الأمانة إمامنا الشافعي رأس المؤتمنين فروى حديثا في مسنده من

حديث مالك لم يسمعه منه عن شيخ عن شيخ عن شيخ عن مالك بواسطة ثلاثة شيوخ. الثاني: سراق التصانيف (و بعد أن ذكر مقاله فيه، قال في آخره) قلت: وقد اقتديت بهؤلاء وعملت مقامة سميتها: «الفارق بين المصنف والسارق»، بسبب رجل استعار من تلامذتي أربعة كتب من مصنفاتي وهي: كتاب المعجزات والخصائص الكبرى وأنموذج اللبيب في خصائص الحبيب وكتاب مسالك الحنفا في والدى المصطفي وكتاب طي اللسان عن ذم الطيلسان.

ثم قال:

سرق السارق مني كتبا وادعاها وهو في ذاك مفترى
وعلى كتب السخاوى قد جنى وكتاب القطب أعني: الخيضرى
في مزايا سيد الخلق علا خير مبعوث أتى من مضر

(ثم ذكر بطرة كتابه أنه) رأى بخط ابن حجر فصلا فيمن أخذ تصنيف غيره مطالعة فادعاه لنفسه فزاد فيه قليلا ونقص منه ولكن أكثره مذكور بلفظ الأصل: البحر للرو ياني، أخذه من الحاوى للماوردى، كذلك الاحكام السلطانية لابي يعلى، أخذه من كتاب الماوردى لكنه بناه على مذهب أحمد. شرح البخارى لمحمد ابن اسماعيل التيمى من شرح أبي الحسين بن بطال، شرح السنة للبغوى مستمد من شرح الخطابي على خ [البخارى] ومن شرحه على د [أبو داود]. الكلام على تراجم البخارى للبدرين جماعة أخذه من شرح خ لابن المنير باختصار. شرح البخارى لشيخنا ابن الملقن جيع النصف الأول من عدة شروح وأما النصف الثاني فلم يتجاوز فيه النقل من شرحي ابن بطال وابن المنير. ثم قال [السيوطي] شرح العيني من فتح البارى. (انتهى ما بخط ابن حجر نقله من خط السيوطي محمد بن علي بن أحمد الداودى المالكي). «٥»

من هذا النص الذى نقله الداودى ـ تلميذ السيوطي ـ وأعاد نقله ناسخ رسالة «الفارق» دون ذكر اسمه، يظهر أن السيوطي كتب رسالة اخرى بعد رسالته «الفارق» حيث أعاد فيها ذكر الموضوع الذى طرقه في رسالته «الفارق» وزاد فيها ابياتا من الشعر لم ترد في رسالتنا هذه. ولم يذكر بروكلمان اية نسخة من «البارق في قطع يمين السارق»(٩) كما أنه لم يرد لها ذكر في سرد مصنفات السيوطي في حسن المحاضرة أو التحدث بنعمة الله أو فهرس اللبودي. والطريف أن أحدا من هؤلاء لم يذكر رسالتنا. فلعلها من «المقامات» الكثيرة التي وصلتنا مجاميع منها(١٠) إلا أنني لم استطع التأكد بعد من وجودها في هذه المجاميع الكثيرة. ولم تسعفنا السيدة سارتين ـ السكوت بذكر عنوانات مصنفات السيوطي التي لم ترد في كتاب «التحدث بنعمة الله» وذكرتها المصادر المخطوطة الأخرى أو المطبوعة، ولو فعلت ـ وهذا من صلب رسالتها ـ لوفرت علينا الرجوع إلى هذه المصادر المتفرقة في المكتبات. ولذلك ساكتفي في الوقت الحاضر في الاقل بنسخة مكتبة جامعة لايدن، واستميح القراء عذرا، وحسبي أن أقدم لهم هذه الرسالة التى تلقى ضوءا على المناخ العلمي الذى كان سائدا في عصر السيوطي والذى لا احسبه يختلف كثيرا عن أى عصر في الموضوع الذى تناولته هذه الرسالة، وهو سرقة جهود الآخرين ونسبتها لغير مصنفها.

موضوع الرسالة:

إن موضوع الرسالة ليس جديدا والانتحال والسرقة ونسبة التواليف إلى غير المصنف والشعر إلى غير الشاعر، موضوع حفلت به كتب القدامى والمحدثين بل والمعاصرين، وهذا ابن حجر محدث عصره لم ير بأسا في القول إن كتاب «بحر المذاهب» لعبد الواحد ابن اسماعيل الرو ياني(١١) المتوفى سنة ٥٠٢هـ أخذه من كتاب الحاوى للماوردى وأن أبا يعلى محمد بن الحسين الفراء البغدادي المتوفى سنة ٤٥٨هـ قد أخذ كتابه: الاحكام السلطانية (١٢) من كتاب الماوردى: «الاحكام السلطانية» المشهور في العالمين: إلى آخر ما سرد ابن حجر من أمثال هذا (١٣). وقد ذكر السيوطي أمثلة مماثلة في رسالته هذه وأصّر بحماسة ملتهبة على ما نسميه اليوم بـ «الامانة العلمية» وأورد اقوال بعض العلماء وأفعالهم في عزو ما يأخذونه من التواليف في مصنفاتهم، وأورد قصة مهذب الدين الخيمي مع نجم الدين بن اسرائيل الذى سرق قصيدة الأول وتحاكمها إلى الشيخ عمر بن الفارض وحكم الشيخ على نجم الدين بن اسرائيل بالسرقة. وقرّع السيوطي هذا السارق الذى سرق أربعة من تصانيفه ونسبها إلى نفسه، دون افحاش، وألب عليه معاشر المصنفين وأهاب بهم أن: «يرسلوا عليه من السنتهم سيعا شدادا، ومن أقلامهم أسنة حدادا، ومن محابرهم بحارا مدادا، ومن أقوالهم جيشا عرمرما لا يدع قلاعا ولا وهادا»، وحثّهم أن يمنعوا عنه اعارة الكتب وحذّرهم من أن يُغير على كتبهم كما أغار على كتبه.

(٥) ما بين الأقواس هو قول الداودى، وما بين المعقوفين [ ] زيادة مني للتوضيح.

شخصية السارق:

لا تكاد شخصية السارق تبين في زحمة التقريع العنيف واللوم الصادر الذى صبه السيوطي عليه فهو موصول «بابناء الخلفاء» وأنه «رجل من أهل ما وراء النهر»، و «رجل قاص» و «رجل صوفي» ينتصر له الخليفة المتوكل على الله العباسي: «وان انتصر له خليل وحبيب فقولوا: أنت عن هذا بمعزل وإن كنت عندنا في أشرف محل وأعلى منزل»، ونحن نعرف أن الخليفة العباسي إذ ذاك كان وثيق الصلة بالسيوطي فجمع الخليفة بينهما: «وحلف بين يدى مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله - أعزه الله وأعز ببقائه الدين - أنه ما وقف على شيء من كتبي أصلا ولا راى منها بابا ولا فصلا». بل إن الخليفة يشفع عند السيوطي و يطلب منه أن يأذن لطلبته باعارة مصنفاته للرجل فيفعل: «اكراما لمن يشفع به من بني العباس وابراما لحبل ودادهم الذى هو عندنا محكم الاساس وتفاديا لرد شفاعة هذه السلالة الذين هم رؤوس الاشراف وكواهل الناس». ومع كل هذا فقد تعمد اغفال ذكر اسمه لانه - على ما يبدو - كان معروفا إذ ذاك عند ابناء عصر السيوطي. ولم تمنع صلة السيوطي بالخليفة العباسي من وصف أحد أهل بيته «بالخيانة» و «الغباء» و «الاعجمية» وغيرها من النعوت بل إن السيوطي الفقيه راى أن «تقطع يده اليمين» كأى سارق وجب عليه حد القطع وأن يؤخذ منه اليمين بأن لا يعود، أما إذا حلف (واليمين على من انكر) أنه لم يسرق، فان هذا الرجل «يمين» أي: يكذب في يمينه. و يعجب السيوطي من العلماء وتقاعسهم عن انكار فعل هذا الرجل بينما يسرع الشعراء والادباء في الانكار على من يسرق شعرا - والشعر رخيص بمقارنته بالعلم. والرجل عند السيوطي كاذب لانه قاص: «ولا يستكثر الكذب عليه فانه رجل قاص ومازالت الائمة قديما وحديثا يحذرون من أكاذيب القصاص»، وللسيوطي مقارعات مع بعض هؤلاء القصاص الذين ألبوا عليه العوام فقامت عليه «الغوغاء وتناولوني بالستهم وتوعدوني بالقتل والرجم» فصنف كتابه: «تحذير الخواص من أكاذيب القصاص» فاحسن.

لم يفت السيوطي انتقاد شمس الدين السخاوى في رسالتنا هذه بالرغم من أنه لم يذكر اسم السخاوى صراحة(٥٥). فقد حكي له عن الحافظ ابن حجر أن: «كبيرا من تلامذته، حافظا مفيدا» استعار من ابن حجر كتابه في «الطبقات» فنقل التلميذ أشياء منها دون أن ينبه على أنه اعتمد على كتاب أستاذه. فن يكون هذا الكبير من تلامذة ابن حجر الحافظ المفيد غير السخاوى الذى وصم السيوطي بالسرقة منه ومن غيره فقال: «واختلس حين كان يتردد إلي مما عملته كثيرا كالخصال الموجبة للظلال (١٤) والاسماء النبوية والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وموت الانبياء وما لا أحصره» بل أخذ من كتب المحمودية(١٥) وغيرها كثيرا من التصانيف المتقدمة التي لا عهد لكثير من العصريين بها في فنون، فغيّر فيها يسيرا وقدم وأخر ونسبها لنفسه وهوّل في مقدماتها بما يتوهم منه الجاهل شيئا مما لا يوفي ببعضه»(١٦). وسرد السخاوى أسماء المصنفات التى سرقها السيوطى من ابن حجر شيخ السخاوى وقال: «فكل هذه تصانيف شيخنا وليته إذ اختلس لم يمسخها ولو نسخها على وجهها لكان أنفع»(١٧). وانتصر السيوطي لنفسه ورد على السخاوى في رسالة اسمها: «الكاوى على تاريخ السخاوى».

ولم ينج السخاوى من لسان السيوطي حتى بعد وفاته (توفي سنة ٩٠٢هـ) فكتب السيوطي في كتابه «نظم العقيان» في السخاوى: «أنه لا يحسن من غير الفن الحديثي شيئا أصلا، ثم أكب على التاريخ فأفنى فيه عمره وأغرق فيه عمله وسلق فيه أعراض الناس وملأه بمساوىء الخلق وكل ما رموا به، إن صدقا وإن كذبا»(١٨).

و يعجبني هنا قول الشوكاني صاحب «البدر الطالع» في مطاعن السخاوى: «وعلى كل حال فهو غير مقبول عليه لما عرفت من قول أئمة الجرح والتعديل بعدم قبول قول الاقران بعضهم في بعض، مع ظهور أدنى منافسة، فكيف لمثل هذه المنافسة بين هذين الرجلين التي أفضت إلى تأليف بعضهم في بعض، فان أقل من هذا يوجب عدم القبول»(١٩). و يصح قول الشوكاني هذا بالشدة ذاتها في مطاعن السيوطي على السخاوي، فكلاهما علم من أعلام الفكر الاسلامي وهما بعد ذلك من البشر فرحمها الله تعالى جميعا.

الفارق بين المصنف والسارق

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على محمد وآله

إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها؛ هل أتاك حديث الطارق وما أدراك ما الطارق: الخائن السارق والابن المارق

(٥٥) لم يذكر اسم السخاوى صراحة في باب انتقاده له مع أنه ذكره في موضع آخر من هذه الرسالة.

الذي نوصله إلينا بأولاد الخلفاء نوصله إلينا بأبناء الخلفاء، فأوسعناه برا فقابله بجفاء، وعاملنا بغدر إذ عاملناه بوفاء، وتطفل علينا في الموائد فأنعمنا له بشيء مما إلينا من الفوائد وأذنا لطلبتنا أن يسمحوا له بأعارة مصنفاتنا الدرر الفوائد اكراما لمن يشفع به من بني العباس وابراما لحبل ودادهم الذي هو عندنا محكم الأساس، وتفادياً لرد شفاعة هذه السلالة الذين هم رؤوس الاشراف وكواهل الناس، فما كان من هذا العديم الذوق إلا أنه نبذ الأمانة وراء ظهره وخان وجنى ثمار غروسنا وهو فيما اجتناه جان؛ افتض أبكار عرائسنا اللاتي لم يطمثهن في هذا العصر إنس قبلنا ولا جان، وأغار على عدة كتب لنا أفنا في جمعها سنين وتتبعنا فيها الاصول القديمة وعمد إلى كتابي «المعجزات والخصائص الطويل والمختصر» فسرق جميع ما فيها بعباراتي التي يعرفها اولو البصر وزاد على السرقة فنسبها إلى نفسه ظلما وعدوانا وما اقتصر وقال: تتبعت وجمعت ووقع لي، قال تعالى: ولمن انتصر. لقد أفنت في تتبع هذه الخصائص عشرين سنة [١ ب] إلى أن زادت على الالاف وأضفت عليها من كتب التفسير والحديث وشروحه والفقه والأصول من كتب المذاهب الأربعة والتصوف وغيرها ما يجل عن العد والوصف بحيث أن «الروضة» التي هي أعظم كتب المذاهب وأجمعها ليس فيها من الخصائص عشر ما في كتابي ولا ظفر طالب بما يرويه في هذا الباب إلا من كتابي، وأنا إلى الآن ساع في الزيادة، وكل وقت أظفر في المطالعة بخصيصة لم تكن قبل ذلك في كتابي مفادة اقتبستها اقتباسا حسنا وهذبتها تهذيبا يزيل عن الطالب وسنه، فجاء هذا السارق فصدّر كلامه بأن قال: وأما الخصائص فقد تتبعت فوقع لي، وساق كتابي برمّته وأورد ما جمعه مما اختص به في ذاته الشريفة وفي أمته، فزعم أنه الجامع المتتبع وهو كلابس ثوبي زور مما لم يُعط متشبعٌ وعمد إلى التخاريج والنقول التي وقفت عليها في أصول القوم فذكر المعزو مستقلا به من غير واسطة كتاب، موهما أنه وقف على تلك الاصول وهو لم يرها بعينه ولا في النوم. ولقد أبهمت نقولها عن أئمة فاوردها على إبهامها ولو سُئل في أي كتاب هي لم يدر خنصرها من إبهامها، ولقد زدت على النسخة التي أعيرت له أكثر من مائتي خصيصة ولو رام الوصول إلى واحدة منها لم يَحْلُ منها بجزء بصيصة وإنما ورّطه في ذلك الجهل بآداب المصنفين فإنه ليس من أهل هذا المنزل بل هو عن هذا الفناء بمعزل؛ لا سمع بالحديث الوارد عن النبي - صلى الله عليه [٢ أ] وسلم وعلى آله: «تناصحوا في العلم فان خيانة أحدكم في علمه أشد من خيانته في ماله»، ولا بالاثر الوارد - رضي الله عن ناقله - «بركة العلم عزوه إلى قائله». ولا رأى صنع المزني حيث قال في أول مختصره الذي كساه الله - لإخلاصه - إجلالا ونوراً وزاده في الآفاق سمواً وظهوراً: «كتاب الطهارة، قال الشافعي: قال الله تعالى «وأنزلنا من السماء ماء طهورا»، أما كان المزني رأى هذه الآية في المصحف فينقلها منه بدون عزوها إلى إمامه؟ قال العلماء: إنما صنع ذلك لأن الافتتاح بها من نظام الشافعي لا من نظامه، ولا أرى صنيع أئمة المذهب كامام الحرمين والرافعي وهلم جرا إلى الآن إذ يقولون فيما لم يقفوا على أصله الأول: وفي كتاب فلان عن كتاب فلان. ولقد نقل النووي تقسيم البدعة إلى خمسة أقسام عن؟ عصريه الشيخ عز الدين ابن عبد السلام ولو شاء لاستنبطه من قواعد الاحكام فقال: هو ماجاء مصنف بشيء من عنده حتى ينقل عنه في عصره ومن بعده، بل [ما] جاء مصنف قط من عنده بشيء: لا متقدم ولا متأخر، ميت أو حي، وإنما للمجتهدين في تصانيفهم، أما رأيت آستنباط مسئلة لم يسبقوا إلى استنباطها من حديثٍ أو قرآنٍ وآستدلال بآيةٍ أو حديثٍ على مسئلة سابقة قد تطرقها النكران؟ ولهذا ذكر قوم من الخصائص ما لم يُورَد في الكتب الفقهية آخذين لها من الآثار والاحاديث المروية، أفيسوغ لاحد أن يُورِدَ هذه الخصائص غيرَ معزوةٍ إلى من استخرجها من الأئمة، قائلا: إنها موجودة في ضمن الاحاديث فلا ينسب إلى من تتبع ذلك وأمّه؟ معاذ الله، بل حتى يعزو [٢ ب] كل واحدة إلى من عدّها و يعطي كل مسئلة من العلم حقّها أو جذها، كذلك فعل الأئمة ونالوا بذلك المراتب العلية الجهة، وكتابي المذكور أوردت فيه من الخصائص الجهد ما لم أسبق إلى استخراجها واستنبطت فيه من الاحاديث أشياء مشيت فيها مشي المجتهدين في مناهجها. وأما التاريخ فوجدت الحفاظ آخرهم شيخ الاسلام أبي الفضل بن حجر صاحب عسقلان، إذا عزو شيئا لم يقفوا على أصله الأول يقولون: عزاه فلان إلى تخريج فلان. ولقد نقل الأسنوي في «المهمات» عن تلميذه الحافظ زين الدين العراقي وعدّ ذلك من مناقبه التي تصعده إلى المراقي. وكان الحافظ ابن حجر يعلّم طلبته إذ نقلوا حديثا أورده لهم أو أثراً يقولون: روى فلان وأخرج فلان بافادة شيخنا ابن حجر، كل ذلك حرصا على أداء الأمانة وتجنب الخيانة فانها بئس البطانة، وامتثالا للحديث واقتداءاً بالائمة في القديم والحديث، وتحرزا عن

الكذب والشنع وتوفية لحق السمع ورغبة في حصول النفع والبركة ورفع تصنيفهم إلى أعلا درجة عن أسفل دركه، وقياماً بشكر العلم وأهله واعطاءاً لسابق حقَّه بفضله، ولكن: «بكت قبلي فهيّج لي البكاء بكاها»، فقلت: الفضل للمتقدم وليتميز ما غاص المصنف عليه مما استخرجه غيره من درر البحار وليسلم من أن يصاب من قِبَلِ مَنْ ظَلَمَهُ بالخيانة بسهم من سهام [٣ أ]. الاسحار، فقد حكى السبكي وغيره عن الشيخ أبي حامد الاسفرايني أنه قيل له: إن فلانا صنف كتبا كثيرة، فقال: أروني إياها، فرآها مسروقة من كتبه فقال: بَتَرَ كتبي بتر الله عمره فمات ذلك عن قرب ولم يتمتع بنفسه ولا وصل إلى ما وصل إليه أبناء جنسه. وذكر الامام أبو شامة في كتابه «البسملة» له: أن بعض الخطباء قد أغار على بعض ما فيه من الابريز فنقله بعينه إلى كتاب جمع فيه أربعين حديثا لرسول الديّان العزيز، فلم يحظ بطائل إذ لم ينسب القول إلى القائل.

وحُكي لي عن الحافظ ابن حجر أنه حشى نسخة من الطبقات بزوائد من التواريخ القديمة لو حررت لكانت في عدة ورقات فاستعارها كبير من تلامذته، حافظ مفيد، فأخذ يصنف طبقات جمع فيها الأصل والمزيد وعزى الزيادة للأصول التي نقل منها أستاذه ولم ينبه على أنه اعتمد على خطه وأنه اليه ملاذه، فكتب له ورقة يلومه فيها أشد اللوم ويقول: أما بلغك ما ورد في ذلك عن القوم ولكن قد حرمت بذلك خيرا كثيرا وفضلا كبيرا، فوالله ما طلعت لتلك الطبقات طالعة ولا رآها أكثر الناس ولا طرق خبرها مسامعه، وهكذا سنة الله فيمن أغار على كتب المصنفين ولم يؤدوا الأمانة من المؤلفين أن يخمل ذكره وذكر كتابه ويعدم النفع به في الدنيا إلى يوم مآبه.

ولقد رأيت هذا الرجل أفحش في سرقة كتابيّ المذكورين [٣ ب]. وأغار على جميع ما فيها مع كونها في الآفاق مشهورين، وسرق لي كتابا ثالثا وهو المختصر المسمى: «طي اللسان عن ذم الطيلسان»، أغار على جميع ما أودعت فيه وصدرها أوردته فيه بقلب كأنه الذي أقام دهرا يتتبعه ويتقصيه فجعل ذلك من تتبعه وقوله وأثبته على أنه من ذخائر كنزه وطوله، فإن كان صادقاً في أنه القائل المتطلع والجامع المتتبع فشكر الله مسعاه وبارك فيما أوعاه، وإن كان سارقا سالخا وناسخا ماسخا وكاذبا في دعوى اطلاعه على الأصول، ومدعيا ما لا حاصل عنده ولا محصول، ومغيرا على مصنفي ومنتحلا لتأليفي فلا يأمن أن يحرمه الله نفعه وثوابه وأن يعدم عليه نفسه وكتابه ثم لا يدفع عنه كبير ولا جليل، ولا يغني عنه صديق ولا خليل.

ولقد أغار على كتاب رابع وهو: «مسالك الحنفا في والدى المصطفى» إلا أنه أخذ منه القليل ولم يستوف ما فيه من تقرير ودليل، ثم أنه لم يقتصر على السرقة من كتبي، بل رأيت كتابه كله سرقة بعد سرقة وصفحات كلها مسترقة، فأصبح بسرقة كتاب القاضي قطب الدين الخيضرى مفتريا [وعززها]. بسرقة كتاب الحافظ شمس الدين السخاوى، فليت شعرى ما الذى الجأه إلى ولوج هذا الباب وليس له طاقة وما الذى اضطره إلى التشبه بأهل الافاقة وهو من أهل الفاقة؟ فإن ظن أنه يربح بذلك فإنما هو يخسر، وإن توهم أنه يدعى بذلك رأسا فإنما هو رأس نسر، وهذا الرجل لست أعرفه في سر ولا جهر وإنما قيل لي عند السؤال ـ وأنا بالروضة ـ إنه [٤ أ]. رجل من أهل ما وراء النهر، فما أجدر هذا السارق الاعجم أن تقطع يده اليمين ويؤخذ منه باليمين وأن حلف على يمين أنه لم يسرق فإنه يمين. ألم يأخذ عدة كراريس من كتابي في المعجزات والخصائص من تلميذى الشيخ عبد الجبار وهو في مكة المشرفة وأطال مكثها عنده مدة إلى أن أغار على ما فيها بغير علم ولا معرفة ثم عاد إلى مصر فسأله عن باقيها فامتنع فالحّ عليه وتشفع إليه فاعطاه بشفاعة من شفع وأخذ كتاب «أنموذج اللبيب» «وطي اللسان» من الشيخ نور الدين [الحسيني]. وأغار فيها على كل نفيس قدره وسني، فيستفيد ولا يعترف وينكر ما أضحى له من بحار كتبنا يغترف، فليدك دكا وليشك في دفتر الخائنين شكا ولتبك عنقه كما بكت بمكة أعناق الجبابرة بكا، وإن زكّاه أحد ما كان عندنا بمزكى.

والله إن سارقا سرق الاشعار ـ وهي بالنسبة إلى العلم رخيصة الاسعار ـ فيعزّ على المسروق منه ويشتد وينبه على سرقته ويعتد ويساعده على ذلك أهل الأدب وينتدبون لافتضاحه مع من انتدب ويؤلفون الكتب في هتكه ويدرجونه في حيز المهمل وسلكه، ألم تر إلى كتاب «الحجة في سرقات ابن حجة»؟ وعقد علماء البيان في كتبهم للسرقة بابا في السرقات الشعرية كل ذلك اعطاء للفضائل حقها وتوفية بنسبة الحقوق إلى مستحقيها، وما أحسن الفصل الذى ذكره الحريرى في مقاماته حيث قال: «فبرزت يوما إلى الحريم لاروض طرفي وأجيل في طرقه طرفي فإذا فرسان متتالون ورجال متثالون وشيخ طويل اللسان [٤ ب]. قصير الطيلسان قد لبب فتى خلق الجلباب قويم الشباب فركضت

على أثر النظارة حتى وافينا باب الامارة وهناك صاحب المعونة متربعا في دسته ومروعا بسمته. فقال له الشيخ: أعز الله الوالي وجعل كعبه العالي، إني كفلت هذا الغلام فطيا وربيته يتيما ثم لم آله تعليما، فلما مهر وبهر جرد سيف العدوان وشهر، ولم أخله يلتوى علي ويتقح حين يرتوى مني ويلتقح، فقال له الفتى: علام عثرت مني حتى تنشر هذا الخزى عني؟ فوالله ما سترت وجه برك ولا هتكت حجاب سترك ولا شققت عصا أمرك ولا ألغيت تلاوة شكرك. فقال له الشيخ: ويلك، وأى عيب أخزى من عيبك وهل ريب أفحش من ريبك، وقد ادعيت سحري واستلحقته وانتحلت شعري واسترقته واستراق الشعر عند الشعراء أفظع من استراق البيضاء والصفراء، وغيرتهم على بنات الافكار كغيرتهم على البنات الابكار. فالتفت الوالي إلى الغلام وقال: تبا لك من خريج مارق وتلميذ سارق».

وما أحسن قول الأديب ناصر الدين محمد بن الحسن بن شاور الكناني:

سارق الشعر على الأبيـــ	ــــات عاد أي عـــاد
وهو لص آمن مـن	قطع كف في فساد
إنما قطع يديــــه	قطعكم عنه الايادى

وقد اشتهر في كتب الأدب قصة مهذب الدين بن الخيمي، لما نظم قصيدة وأودعها في الخلوة وسافر، وسكن [٥ أ]-الخلوة من بعده نجم الدين بن اسرائيل - شاعر آخر - فوجد تلك الورقة فنسب القصيدة إلى نفسه وقد جاء صاحبها من السفر فبلغه الحال فشكاه إلى أبناء جنسه وتحاكما إلى الشيخ عمر بن الفارض في أمرهما فأمر كلا منهما ان ينظم قصيدة على رويها وبحرها، فلما سمع القصيدتين وعرف النفس قضى بتلك لابن الخيمي وعرف أن الثاني منه سرق واختلس، فقال له ابن اسرائيل: يكون من وضع الحافر على الحافر، فقال له ابن الفارض: وقع الحافر على الحافر يكون من الأول إلى الآخر، فكيف يترك هذا وعزيز العلم يغير عليه وينسب ما ليس فيه يد إليه ويوجه إلى الخيانة في كتبنا وجهه ويسير في باب الاغارة إلى كل وجهة ويسرق من ذخائر كنوزها جواهر نفائسها لاشك له فيها ولا شبهة فلذلك هتكنا أمره وإنا لصادقون وفضحنا خيانته وجنايته وإنا بنصر الله لواثقون وبعثنا في ناديه مؤذنا يؤذن: أيتها العير انكم لسارقون. (***)

الثاني قلنا لم ينتفع بما سرقه ولم يبلغ منه الاماني فاصبح هذا سارقا من سارق وغاصبا من غاصب لا يقبل الله صدقة من غلول وللغالين عذاب واصب، أعوذ بالله من هذا الطارق السارق وأستعين برب الفلق من شر هذا الفاسق، فحق أن يمنع هذا السارق من اعارته كل كتاب مصون وأن يدخر عنه أنفس الكتب في أحصن الحصون، فاحذروا معاشر المصنفين أن يغير على كتبكم إن كنتم بعزة العلم توقنون واجتنبوا شياطين سحره أن يأكلن ما قدمتم [٥ ب]-لهن إلا قليلا مما تحصنون وأرسلوا عليه من السنتكم سبعا شدادا ومن أقلامكم أسنة حدادا ومن محابركم بحارا مدادا ومن أقوالكم جيشا عرمرما لا يدع قلاعا ولا وهادا، وأولوا هذا السارق قطعا وأمنعوا عنه الكتب منعا، والمبطل فاقرعوا والخائن فاردعوا والسارق فاقطعوا واهدموا بنيانه من أصله وألحقوا كل شكل بشكله وردوا كل شيء إلى أهله وقولوا جزاؤه من وجد في رحله، وإن انتصر له خليل وحبيب فقولوا: أنت عن هذا بمعزل وإن كنت عندنا في أشرف محل وأعلى منزل، وما أظن الحامل له على كلمة أمضاها إلا لحاجة في نفس يعقوب قضاها وإن غرة قوم جاءوا إليه وحسنوا الاصرار على ما هو عليه وزعموا أنهم ينصرونه بألسنتهم السفيهة ويذبون عنه بافتراآت هي بافعال بني اسرائيل شبيهة فوالله ما يزداد هو ومن أغواه إلا نزولا وسيرون عجائب قدرة الله الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا، وإن أراد أن يتعاظم بذكر منام يزعم أنه رآه ليقرر بذلك علاه وأن الرزق لباق بدون ذلك ويحصل بدون ارتكاب هذه المسالك، ثم إنا لا نقبل الخبر إلا ممن عرفنا صدق لسانه واستقامة شأنه وأما من جربنا عليه الكذب والقول المضطرب والخروج عن أسلوب الصادقين إلى أسلوب المدّعين الدعاوى الكذب والسارقين فانه عندنا محكوم له بالجرح وقوله يلقي في حد الطرح حتى أنه يصدق فما يُصدّق وينطر فما يُحقّق. وكيف أصدق من جربت عليه الكذب يقينا؟ وكيف أقبل من افترى بهتانا واثما مبينا، ولا يستكثر الكذب عليه فانه رجل قاص وما زالت الائمة قديما وحديثا يحذرون من أكاذيب القصاص وينبهون عليها كل عام [٦ أ]-وخاص، وإن قال قائل إنه يتخلق لهم بخلائق الصادقين الصالحين فقل كما قال بعض الظرفاء: إن الله لا يحب الصالحين المالحين، وإن قال آخر: إنه صوفي وله في الطريق أستاذ، فقل كما قال بعض صوفية بغداد: الصوفية قسمان: منهم من يسأل الخلق ومنهم من يرد الخلق، فليتق الله هذا الرجل في جميع أحواله وليعلم أنه مطلع على أحواله

(***) الاشارة هنا إلى من؟ السيوطي وحده يعرف!

وأقواله فإن كان صادقا أنه لم يستمد من كتبنا فليوقن بالبشارة فإنه يظفر بحسن البشارة وإن كان من كتبنا مستمدا [كان] ظالما بالاصرار قد تعدى ومتجنيا بالباطل متحليا وهو في الحقيقة عاطل فيكفينا فيه علم الله الذى لا تخفى عليه خافية ولا تقي من سطواته القارعة واقية. ولقد عرضنا على هذا السارق أن يرجع إلى أداء الأمانة فأبى وألقينا إليه من قول رَغَباً ورَهَباً حتى اجتمع عليه رجل صدق من أهل المغرب ووقف على بعض ما سرق من كتبنا من هذا الضرب فقال له: ما أنصفت ولا اعترفت حيث لم تعْزُ إلى كتابه ما منه اغترفت، فلما حقق منه المناط وعلم انه لا مناص له عن الارتباط عزى إليّ ما نقله من كتاب «المسالك وكتاب الطيلسان» وطوى عن عزو باقي المسروق القلم واللسان فاقتصر على عزو موضعين من غير زيادة وسكت عن عزو ما بقي من كتابي «المعجزات والخصائص» وكلها عين القلادة واعتذر عن ذلك بأنه يخشى أن يفسد عليه المكتوب، وما صدق بارتباطه على هذا الأسلوب وذلك أن غالب كتابه مسروق من كتابي [٦ ب] المذكورين ومسلوخ من تأليفيَّ هذين المشهورين فخشي أن يطرح بعزو كل ما نقله عنها و يؤدى الامانة في جميع ما سرق منها فلا يبقى من الكتاب إلا القليل [و] جلّ ما فيه ليس فيه كبير عمل وهذا من تقديم الصلوة بالباطن على أداء السنة والفرض، أنني «ساصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق»، «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض».

وسمعت أنه قال: إنما صنفته تقربا إلى ربي وليثبت الايمان في قلبي، فيا سبحان الله، الايمان يثبت إلا بالصدق والأمانة، أما سمعت الأحاديث: «الكذب يجانب الايمان»، «لا ايمان لمن لا أمانة له»، «يطبع المؤمن على الخلال كلها غير الكذب والخيانة»، وهل يتقرب إلى الله بمسروق؟ أيخفى عليه ذلك؟ وهو ما خفي على أحد حين دخل به السوق، وإن كان كما قيل: صنفه ليحث عليه وليحي من الرجال والنساء ما يضمه إليه، فلو كان عنده حسن يقين لعلم أن الله هو الرازق وأنه يعطي على الصدق والامانة ما لا يعطي على ضد هذه الاخلاق، أأمن أن يناقش في بعض ما نقله من كتابي فلا يحسن الخلاص أو يقال في بعض ما أبهمت نقله: من أين أصل هذا؟ فينادى حين لات مناص أو يمتحن كما كانت الفضلاء يمتحنون السارقين و يقال له: صنف لنا كتابا في النوع الفلاني إن كنت من الصادقين، ها قد بلغني عن بعض أولي السقط ممن أراد أن يسبق بجهل فسقط [٧ أ] أنه اعترض على قولي في الخصائص: «وجمعت له الشريعة والحقيقة، ولم يكن للانبياء إلا أحداهما بدليل قصة الخضر وقوله: «إني على علم لا ينبغي لك أن تعلمه وأنت على علم لا ينبغي لي أن أعلمه»، فقال: إن في هذا نقصا للانبياء وإنه قد أوتي الأمران احاد الاولياء وإنه أراد أن يكتب على ذلك ردا ويخص باب الخصوصية على جناب المصطفي سدا وما ذاك إلا لأن هذا المعترض جاهل وعن أقوال أئمة الدين غافل ذاهل، وإن كان اعتراضه على أئمة الاسلام الذين قالوا بهذه المقالة فهو أقل من ذلك وأحقر وأشد جهالة، وإن كان اعتراضه على الحديث الذى به الدلالة فهو يرتكب بذلك شر ضلالة لأنه مقطوع بحجته لا محالة. وكان الأولى به أن يقول: لم أفهم المعنى المراد وأن لا يحرك شفتيه بأنه لذلك راد، ثم أفيدكم أنتم يا معشر أولي التقى معرفا عن جاهل ليس له مرتقى: أن للعلماء في معنى هذا الحديث قولين لا يصل المعترض إلى ادراكها؟ ولو سار في لجج البحار حولا أو حولين.

الأول: علم العلم على التقييد، والمعنى، لا ينبغي لك أن تعلمه لتعمل به وتحكم بمقتضاه، وهذا في جانب الخضر. وهذا ما قرره الشيخ سراج الدين البلقيني اخرا وارتضاه.

والثاني: أن النفي علم الجميع، أي: لا تعلمه جميعه ولا أعلمه جميعه إذ لابد لموسى من معرفة جانب للحقيقة وللخضر من معرفة جانب من الشريعة وهذا ما جزم به الحافظ ابن حجر في شرح البخاري، وغير واحد من الائمة الذين هم النجوم [٧ ب] الدراري والظاهر أنه المراد من قول البلقيني أولا في صدر كلامه الذى أجاب به قبل ما تقدم نقله عنه في نظام علم الحقائق والكشوف، مناف لعلم الظاهر الوافي فلا ينبغي للعالم بأحدهما أن يعلم الآخر لما بينهما من التنافي. وقول القرطبي [في] قوله تعالى (****) «إن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك» أى: بأحكام ووقائع مفصلة وحكم نوازل معينة لا مطلقا بدليل قول الخضر: أنت على علم علمك لا أعلمه أنا وأنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت.

قال: وعلى هذا فيصدق على كل واحد منهما أنه أعلم من الآخر بالنسبة إلى ما يعلمه كل واحد منهما ولا يعلمه الآخر. قال الحافظ ابن حجر: وفي رواية النسائي ان عبدا من عبادى أتيته من العلم ما لم أوتك، فهذه التقريرات كلها تحمل على أن المراد نفي الجميع كما هو القول الثاني. ولا تفتقدوا قولا ثالثا مما للحديث من المعاني. وعلى كلا القولين فالخصوصية ثابتة للمصطفي

(****) هذا ليس من القرآن الكريم وإنما هو، كما قيل، مما أوحاه الله تعالى لموسى. انظر جريدة التوضيحات.

ظاهرة ليس بها خفاء لأنه صلى الله عليه وسلم جمع له جميع الشريعة وجميع الحقيقة واذن له في الحكم بها في أحسن طريقة، ولو تأمل هذا الجاهل عبارتي لاهتدى إلى لفظ الجمع، واللام الاستغراقية إشارة إلى هذه الدقيقة. وقد ذكرت لمن نتبعه في العلوم ونقتفيه أن من فضائله صلى الله عليه وسلم أن ما كان متفرقا في الانبياء يجتمع فيه فقول هذا المعترض: إن ما أوتيه المصطفي من ذلك ساواه فيه كل نبي، كلام جاهل بنقول العلماء والاحاديث غبي، وقوله: إن في اختصاصه بذلك [٨ أ] نقصا للانبياء أعظم دليل على أنه من الجاهلين الاغبياء، فكم من خصيصة أوتيها صلى الله عليه وسلم لم يؤتها نبي قبله أبانَ رب العالمين مزيّته عليه وفضله واعتقاد عدم تنقصهم بذلك فرض. ومصداقه: «تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض» ، «ولقد فضلنا بعض النبين على بعض»، هذا القول الثاني، إن المنتفي علم الجميع، وأما الأول فعلى نفي العلم والتشريع، فأي انكار في بعث الله نبيا ليحكم بهذا دون هذا و يبعث آخر على حكم ذلك نفاذا؟ ألم يبعث نبينا صلى الله عليه وسلم تسليا باحكام ما كانت في شريعة نوح ولا هود ولا إبراهيم؟ فمن ذا الذى عدّه نقصا أو نصّ على التحذير من ذكره نصا؟ ألم يقل الله - يا من لم يجد لجهله المركب علاجا - «لكل جعلنا شرعة ومنهاجا» فيستنكر أن يبعث نبي يحكم بالشريعة دون الحقيقة و يبعث آخر يحكم بالحقيقة دون الشريعة الانيقة؟ لو كان موسي بعث ليحكم بالأمرين معا ما كان ينكر على الخضر ما فعله شرعا. وأما نبينا صلى الله عليه وسلم، أنه فضل على سائر الانبياء بأن أذن له في الحكمين وفسح له في القسمين وشرّف ديوان حكمه بالنظمين، وقد تقرر فيا نقله غير واحد من العلماء وأفاد أنه صلى الله عليه وسلم جمع من الفضائل ما تفرق للانبياء مع زيادة. ومن أمثلته أن كل صلاة من الأربع كانت لنبي فجمعت له وزيد عليهم صلاة العشاء، «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء». وقول هذا المعترض: إن الأولياء يساوون المصطفي في ذلك: كلمة كفر يقشعر الجلد من ضلالها ويجب الاستغفار من سماعها فضلا عن مقالها [هنا انقطاع]، إما على القول [٨ ب] الأول: إن المراد الحكم، فمن ذا الذى أباح لولي أن يقتل أحدا من أطفال المسلمين ويحتج بأنه طبع كافرا؟ أأعلمه به رب العالمين؟ قال القرطبي وغيره ممن تأخر وتقدم: أجمع العلماء عن بكرة أبيهم أنه لا يجوز لحاكم أن يقتل بعلمه إلا النبي صلى الله عليه وسلّم وأما على القول الثاني: إن المراد علم الجميع، فهل يقول مسلم إن أحدا من الأولياء الاكملين أوتي العلم والحقائق مثل ما أوتي سيد المرسلين؟ الله اكبر، الله اكبر كلا ولا يساوى ولي نبيا قط في حقيقة واحدة وإن بين علمهما لغاية المباينة والمباعدة. قال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله [السكندرى] كلمة أعظم بمقالها: «الانبياء يطالعون بحقائق الأمور والأولياء يطالعون بمثالها، فالأول كمن رأى بعينه الشيء وشاهد أمره والثاني: كمن نظر مثاله المنطبع في المرآة»؛ فشتان ما بين المقامين شتان! وهيهات هيهات يا جاهل يا فتّان، والله، والله ما أوتي أحد من الأولياء من العلم مثل ما أوتي الصحابة ولا عشر معشاره فضلا عمن فضله الله على الانبياء والمجتهدين والمرسلين لعلو مقداره وآتاه علوم الأولين والآخرين في بحر أنواره. ألم يسمع هذا الجاهل بالأثر الشائع عن [....]: «لما مات عمربن الخطاب ذهب معه تسعة اعشار العلم و بقي في الناس عشرة»، وبهذا وأمثاله يقع كثير من الفقهاء في الصوفية و يسيء بهم الظنون الخفية وذلك أنه يرى دخيلا مثل هذا الجاهل و يزعم أنه منهم وهو منقطع الأثر عنهم جاهل بالاحاديث [٩ أ]. والفقه والأصول لا حاصل عنده من التصوف ولا محصول ولا منهاج له إلى ادراك ولا وصول، يتصدى للكلام في مسئلة فيزل فيها لجهله بالشرع زلة و يضل فيها لبعده عن النقل والسمع ضلة فيطلع على فقيه يعلم أن هذه كفرة توجب لقائلها من النار حفرة فيظن أن الصوفية كلهم على هذا المنوال وهم براء منه ما فيهم له من وال فيقضي على الكل بالضلال وعلى طريقهم بالاختلال والاعتلال فإنا لله وإنا إليه راجعون من هذه المصيبة وحسبنا الله ونعم الوكيل من جاهل يتكلم في هذا المقام بهذه المعضلة العضلية. وقد أجاب الشيخ على وفا عن اعتراض أورده الحافظ زين الدين العراقي على الصوفية بمثل هذا الجواب وقال: لا ينسب ما أتاه أهل الخطأ إلى أهل الصواب، فانظر إلى هذا المعترض وأشياعه كيف لم يهتدوا إلى فرقان ولم يكن لهم من نور، صاروا كالانعام فعمدوا إلى [....] آل عمران فليغلبن كما غلبت الروم وليهزمن كما هزمت الاحزاب بقدرة الحي القيوم وليتلون الشعراء من أخبارهم القصص وليتجرعن من عقوبات جرائمهم جرع الغصص بالحصص وليطبعن على عقلهم بسبأ وعلى كبدهم بفاطر وعلى قلوبهم بصاد وليقرأن في مطلع الفجر: «إن ربك لبالمرصاد» وليذوقن الهمّ والترح بـ «إذا جاء نصر الله والفتح»، وليبعدن [عنهم] الاعوان والانصار، وليطين على آذانهم من سورة إبراهيم ما هو كالرعد «ولا يحسبن الله

غافلا عما يعمل الظالمون، إنما نؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار»، [هذه جملة معترضة [٩ ب] نبهنا بها على أن التصنيف يرصد لسهام المعترضين الطائشة ونبال الجاهلين التي هي عارية من التحقيق غير رائشة] فياليت شعري كيف يصنع هذا السارق إذا أُورِدُ عليه مثل هذه المناقشة؟ أله باع ذو امتداد، وساعد ذو اشتداد؟ أعنده أسنة حداد وسهام خارقة مقرونة إذا رمى بها بالسداد وسيوف هندية معدة للجدال والجلاد إذ أقبل في الجواب بداد بداد ودروع سابغة لا يبالي معها قل أم كثر العداد، ومنجنيقات ذوات عماد «لم يخلق مثلها في البلاد» وصواعق إذا أرسلت تملأ شرورها كل واد، أم عنده مجرد نقل قلم بمداد، ونقش في بياض بسواد، ثم ادعى بما بينه و بينه الفؤاد، والتجأ إذ طولب بالحق إلى أهل الفجور والعناد، ولقد جاءني جاء فأخبرني أنه أذعن للحق ورجع واعترف وأطاع لعزو ما كتبه إلى كتبي التي منها اغترف، ثم نكص على عقبه وأصرَّ على جنايته وكذبه بسبب أنه اجتمع به مجتمعون وقالوا له: لا تتزلزل فانك قد أشعت أنك رامح كيف تعترف بعد ذلك بأنك أعزل؟ فحسن له هذه الحال العاطل ونسي أن الرجوع إلى الحق خير من التمادي على الباطل كما بلغ السخاوى عنه وهو بمكة أنه ينقل من كتبه ولا يعزو إليه فتغيظ بسبب ذلك عليه وواجهه بالاغلاظ وتوعده إن لم يعز إليه بأن يرسل عليه شواظه فأظهر له الاجابة وعدل بعد ذلك عن طريق الاصابة، فصبر جميل والله المستعان يا خليل(ooooo). ثم وقع ما هو أعجب من ذلك وأغرب وهو أنه حلف بين يدى مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله [١٠ أ] أعزه الله وأعز ببقائه الدين، أنه ما وقف على شيء من كتبي أصلا ولا رأى منها بابا ولا فصلا ثم اعترف ثاني يوم عند الحاج على مهتار مقدم المماليك: أنه وقف على الكتب الاربعة ورآها وذكر أنه لما حلف بين يدى أمير المؤمنين استثناها فكذب أولا وآخرا و باطنا وظاهرا، و بلغ الجماعة الذين أغروه حلفه هذا فازداد عندهم سقوطا وتزايد انحطاطا وهبوطا ومع ذلك إن تاب هذا الرجل من الجناية قبلناه وإن ردّ الامانة إلى أهلها أهلناه وإن عاد وطلب من كتبنا شيئا على أن يراعي هذا الشرط المعتبر انلناه وإن خفي عليه شيء كما خبط في نقل كثير من كلامنا فهمناه ودللناه وأوضحنا له ما غلط في نقله من كتبنا وفصلناه، وإن أصرّ على خيانته واستمر على جنايته نزّلناه وسفّلناه وأبقيناه على خطائه وجهّلناه وعددناه في زمرة الخائنين وكتبنا على قفاه: «وإن الله لا يهدى كيد الخائنين».

والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب، تمت بحمد الله وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

(ooooo) اشارة إلى الخليفة المتوكل على الله العباسي وقد كان صديقاً للسيوطي.

الحواشي والاشارات:

1) Edited by E.M. Sartain-al-Sakkut, (Cairo 1972), pp.105-130,336-357.

(٢) حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة، تح: محمد أبو الفضل ابراهيم (القاهرة ١٣٨٧/١٩٦٧) ١/٣٣٩-٣٤٤.

(٣) فهرس مصنفات السيوطي، مخطوط مكتبة جامعة لايدن (Cod. Or. 2488) ووصلنا أيضا ثبت باسماء مصنفات السيوطي لأحمد الحمصي الانصاري الذى اجازه السيوطي برواية هذا الثبت (مكتبة جستربيتي بدبلن - ايرلندا (2) 3420) ... وهناك ثبت آخر بمصنفات السيوطي لم يزل هو الآخر مخطوطا في مكتبة جامعة كمبردج بانكلترا (Qq 89 (1) ; 746)

4) Br. GAL. II, 391; Suppl. II, 932; Chester Beatty MS No. 4436; India Office Lib. MS No. 4574 (2)

5) Br. GAL. II, 289; Suppl. II, 401; Berlin MS No. 10134.

6) Jalal al-din al-Suyuti (Vol-I): biography and background (Cambridge Univ. Press 1974).

7) Br. GAL. II, 181-204; Suppl. II, 197-198.

8)Cf. vol. 1/179-199; vol. 2/105-136.

9) Br. GAL. Suppl. II, 197 (302f).

10) Ibid.; E.Sartain-al-Sakkut, 1/188, f.n.23; Dar al-Kutub of Cairo MS Taimur 302; Chester Beatty MSS Nos. 4461,4590,5500, 5112, 5490.

11) Br. GAL: I, 390; Suppl. I, 673.

12) Br. GAL. I, 398.

(١٣) يروى السخاوى في ترجمة حسن بن محمد بن حسن الحسني أن شيخه ابن حجر قال: «ووقفت له (للحسني) على تصنيف لطيف في آداب الحمام بخطه، قرظه له علماء العصر كالبلقيني (سراج الدين) وابنه (علم الدين) والايناسي والطنبذى والمجد اسماعيل الحنفي والغمارى

وابن مكية والشرف عبد المنعم البغدادي والجلال نصر الله البغدادي وآخرون. وخفي على الجميع انه استلبه من مصنف جليل ووقفت عليه محمد بن عبد الله الشبلي الدمشقي صاحب آكام المرجان في احكام الجان وغيره وما اظن المقرظين وقفوا عليه» (الضوء اللامع ١٢٣/٤).

(١٤) يشير السخاوي هنا إلى كتاب «تمهيد الفرش في الخصال الموجبة لظل العرش» أو إلى كتاب «بزوغ الهلال في الخصال الموجبة للظلال» وكلاهما للسيوطي، انظر: كتاب التحدث بنعمة الله ١١١/٢، ١٥٨، ١١٥، ١٤٤، «حسن المحاضرة» ٣٤١/١.

— كتاب الاسماء النبوية، يشير السخاوي إلى كتاب «الرياض الانيقة في شرح أسماء خير الخليقة» أو إلى كتاب «المرقاة العلية في شرح الأسماء النبوية» وكلاهما للسيوطي، أنظر كتاب: التحدث بنعمة الله ١٠٧/٢. أما «موت الانبياء»، فللسيوطي «انباء الاذكياء لحياة الانبياء» (١٢٤/٢)

— كتاب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، للسخاوي فلعله يشير إلى كتاب «جزء في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم» للسيوطي (التحدث بنعمة الله ١١٨/٢). وقد نشر كتاب السخاوي باسم «القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع» مرتين في بيروت (١٣٨٣هـ) على نفقة المكتبة بالمدينة المنورة.

(١٥) مكتبة المدرسة المحمودية: وهي في المدرسة المحمودية أنشأها جمال الدين محمد بن علي الاستاذ دار سنة ٧٩٧هـ (الخطط للمقريزي ٣٩٥/٢) وقد كان من شرط الواقف أن لا يخرج منها كتاب بالاعارة أو بالرهن وكان السيوطي يستعير منها كتبا فلعل أحدا اعترض عليه فصنف كتابه «بذل المجهود في خزانة محمود» يبرر فيه الاعارة اقتداءا بكثير من العلماء الذين كانوا يستعيرون كتبا منها مثل علم الدين البلقيني وشرف الدين المناوي، ضد شرط الواقف.

(١٦) الضوء اللامع (القاهرة ١٣٥٤) ٦٦/٤.

(١٧) المصدر نفسه ٦٨/٤.

(١٨) نظم العقيان في أعيان الاعيان، تح: فليب حتي (نيويورك ١٩٢٧) ١٥٢.

(١٩) البدر الطالع (القاهرة ١٣٤٨)

جريدة التوضيحات:

ورقة ١ أ): كتاب المعجزات والخصائص الطويل والمختصر: ذكره السيوطي في «التحدث بنعمة الله» (١٠٧/٢، ١٥٧، ١٥٨ وقال: مجلد ضخم) ومثل هذا ذكر اللبودي (ورقة ٣ ب) وهو غير «انموذج اللبيب في خصائص الحبيب» الذي يسمى أيضا بـ «الخصائص الصغرى» (التحدث ١١٥/٢)، فلعله الكتاب الذي نشره ظهور أحمد ظهور في (لاهور-باكستان ١٤٠١هـ) كما جاء في مجلة «عالم الكتب» (مج ٢، عدد ٣، المحرم ٤٩٨/١٤٠٢). ونشر د/محمد خليل الهراس كتاب: «الخصائص الكبرى أو كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب» (القاهرة ١٣٨٦، في ثلاثة أجزاء) وهذا على مايبدو هو الخصائص الصغرى (انظر: في التحدث ٢٠٠/١، حاشية ١٦ و ١٥٧/٢) أم أن هناك كتابا آخر غيره يسمى «أنموذج اللبيب إلى خصائص الحبيب»؟ فإن تشابه أسماء المصنفات يوقع بعض المحققين في الخطأ. وذكر السيوطي «المعجزات والخصائص النبوية» (حسن ٣٤٠/١).

ورقة ١ ب) كتاب الروضة: هو روضة الطالبين للنووي المتوفي سنة ٦٧٦هـ (انظر: بروكلمان ٣٩٦/١، ٤٢٤، وقد اختصره السيوطي وزاد عليه وعلق عليه ونظمه في أكثر من مصنف: مختصر الروضة مع زيادات يسمى: الغنية، التعليقة الكبرى على الروضة ويسمى: الازهار الغضة في حواشي الروضة، الينبوع في ما زاد على الروضة، الخلاصة في نظم الروضة، وغيرها، (التحدث ١٠٩/٢، ١١٢، ١٣٦).

ورقة ٢ ب): كتاب المهمات: للاسنوي المتوفي سنة ٧٧٢هـ كتاب «المهمات في الفروع»، وله كتاب «المهمات الغامضة في الاحكام المتناقضة» (انظر بروكلمان: ٤٢٤/١، ٩١/٢، ملحق ٧٥٣/١، ١٠٧/٢).

ورقة ٣ أ) : كتاب طي اللسان في ذم الطيلسان للسيوطي، ذكره السيوطي في حسن المحاضرة (٣٤٣/١) وفي: «التحدث بنعمة الله ١٠٧/٢، ١١٧» واللبودي (ورقة ٥ ب) و بروكلمان، ملحق ١٦٩/٢.

ورقة ٣ ب) : كتاب مسالك الحنفا في والدى المصطفى: ذكره بروكلمان (١٤٧/٢، ملحق ١٨٣/٢ (٤٤)، وللسيوطي كتاب «الفوائد الكامنة في ايمان السيدة آمنة وتسمي أيضا: التعظيم والمنة في أن والدى المصطفى في الجنة (التحدث بنعمة الله ١٢٤/٢، وفي حسن المحاضرة ٣٤١/١، و بروكلمان ١٤٧/٢ (٤٣)، ملحق ١٨٣/٢، وذكر بروكلمان ١٤٧/٢ «المقامة السندسية في خبر والدى خير البرية» و «رسالة في والدى النبي» و «الدرجة المنيفة في الاباء الشريفة» و «نشر العلمين المنيفين في احياء الابوين الشريفين» وكلها للسيوطي.

— قطب الدين الخيضري: هو محمد بن محمد بن خيضر (بكسر الضاد) توفي في سنة ٨٩٤هـ نظم العقيان في أعيان الاعيان ١٦٢، بروكلمان ٩٧/٢(٣٨).

— الروضة : هي روضة المقياس بالقاهرة حيث كان منزل السيوطي.

ورقة ٤ أ) : الشيخ عبد الجبار بن على الاخطابي تلميذ السيوطي، ترجم له السخاوى في «الضوء اللامع ٣٥/٤ - ٣٦، وقال: «لا يخلو من هوس شيخه».

— الشيخ نور الدين الحسني أو الحسيني، لم اتبينه بعد.

— كتاب الحجة في سرقات ابن حجة، لمحمد بن الحسن النواجي المتوفي سنة ٨٥٩ (انظر: بروكلمان ٥٧/٢(١٦).

— هذا النص من المقامة الثالثة والعشرين الشعرية من مقامات الحريري (انظر: طبعة القاهرة ١٢٧٩هـ، ١٢٧ - ١٢٨).

ورقة ٤ ب) : ناصر الدين الحسن بن شاور الكناني : هو محمد بن الحسن بن شاور توفي سنة ٦٨٧هـ (حسن المحاضرة ٥٦٩/١) وما ورد في المخطوطة خطأ. فقد سقط اسمه الأول. أما الخيمي فهو شهاب الدين محمد بن عبد المنعم الانصارى ترجم له السيوطي في حسن المحاضرة (٥٦٩/٢) نقلا من ابن فضل الله العمرى ومن كتاب العبر للذهبي، وترجم له العماد في الشذرات ٣٩٢/٥. أما نجم الدين بن اسرائيل، فلم اتبينه بعد.

ورقة ٧ ب) : البلقيني : هو سراج الدين عمر بن رسلان، والد علم الدين صالح شيخ السيوطي توفي سنة ٨٠٥هـ (بروكلمان ٩٢/٢) وقد ترجم له السيوطي في حسن المحاضرة (٣٢٩/١ وما بعدها).

— ابن حجر في شرح البخاري (فتح الباري)، انظر ٤٠٩/٨ - ٤١١، ونص رواية النسائي: «ان من عبادى من آتيته من العلم ما لم اوتك» في ٤١٤/٨.

ورقة ٨ ب) : تاج الدين ابن عطاء: هو السكندري، صوفي معروف توفي سنة ٧٠٩هـ، انظر: بروكلمان ١١٧/٢، حسن المحاضرة ٤٢٤/١.

ورقة ٩ أ) : على وفا : هو ابن مؤسس الطريقة الوفائية، انظر طبقات الشعراني د. ت، ٢٠/٢ وانظر: بيت السادة الوفائية لتوفيق البكرى (القاهرة د. ت.).

— زين الدين العراقي: توفي سنة ٨٠٦هـ، ترجم له السيوطي في حسن المحاضرة ٣٦٠/١.

— المتوكل على الله: انظر عنه السخاوى: الضوء اللامع ٢٣٦/٤ - ٢٣٧، حسن المحاضرة ٩٢/٢، وقد كتب له السيوطي: الاساس في فضل بنى العباس (التحدث بنعمة الله (١٥٧/٢) وكتاب رفع الباس عن بني العباس، وخرّج له مشيخة (التحدث ١٢٨/٢) وجزءا في الحديث حث به (حسن المحاضرة ٩٢/٢).

ورقة ١٠ أ) : الحاج على المهتار، مقدم المماليك، لم اتبينه بعد، وعن مقدم، أنظر: الالقاب الاسلامية لحسن الباشا (القاهرة ١٩٥٧)٤٨٧.